

شجار
المقتبسة منها قصة فيلم
سعيد أفندي
بقلم : ادمون صبري

شجار

المقتبسة منها قصة فيلم

سعيد افندي

لكم كان المعلم سعيد يشعر بالتعب والسأم ، منذ الصباح الباكر أطل عليه رأس صاحب المنزل ، وقف بعتبة الباب مزمجراً غاضباً « ما هذا التسويف يا سعيد هل انتظر سنة كاملة ، ادفع ايجارك في الحال والا القيت اثاثك بالوحل » واغاظه بكلام خشن اخر ، جعل سعيد ينكمش ويخجل ، وتجمهر عدد من المتسكعين يحملون علاقات مليئة بالخضار والخبز واللحم يمطمطون شفاههم وينخرون وبعضهم لا زال بثياب النوم ، وتقدم جاره السيد بدر. وهو حقود فظيع ليتفرج على المشهد الصباحي دون ان يبادر الى معونته ، لكم اغاظ سلوكه هذا المعلم سعيد . نشبت معركة صبيانية قبل ايام بين اطفاله واطفال هذا الجار ثم امتد لهيبها الى الزوجتين فتراشقتا بالسباب وكالت احداهما للاخرى تهما شنيعة ، انتهت الى جفوة بين الرجلين العاقلين . لقد بدت امارات التشفي جلية في عيني جاره وكأنه يقول هيا ايها الاخرق الجبان ابتعد عن محلتنا فلم نعد نطيق رؤية وجهك بعد اليوم..

فاضطر سعيد ان يبحث عن منزل اخر لئلا تسوء الحال وتقع المحذورات التي يعمل جهده لاجتنابها ، فطوف في عدد كبير من الازقة المحترمة النظيفة

المغلقة الابواب على سيدات مؤدبات وقورات واطفال لطاف نظاف ، فلم يوقف الى منزل مناسب . كان المالكون البطرون المشبعون رفاه وخيراً يبتسمون فى وجهه أبتسامة مستخفة تعقبها عروض فاحشة تجعل سعيد افندي يجفل ويفغر فاه .

وكان عليه ان يلتمس الأزقة الدنيا ، فجابهته الوساخة وضجيج الاطفال ومهاترات النسوة ، ولكن الايجارات ههنا اخف الوطأة والمالكين أقل بطراً واستخفافاً .

فأتى ذات صباح بعربة مكشوفة يجرها حصان احمر بالغ القوة ، كدس على سطحها اثاثه القليل الرث الزاهد القيمة ، ومضى هو وراء العربة ليطمأن على متانة الحبال وسلامة العقد وتجمهر عند الابواب نسوة نصف متواريات يشيعن المعلم بنظرات هازئة شامتة جعلت غيظه يتعاظم ، وود لو انزل على وجوههن الصفيقة صفعات قاسية كتلك التي يؤدي بها تلاميذه فى الصف .

واذا كان الصباح من غد غادر منزله الجديد الى مدرسته ، فوجد اكوام الزبل ملقاة عند الابواب والروائح النتنة تزكم الانوف والمياه الملوثة السوداء تنحدر فى شقوق الارض وحفرها فتلتقي فى اقنية واسعة تسد منافذ الطريق ، وبرزت له النسوة الحافيات الملفعات بالصوف قد اخفين عيناً وبصبصن باخرى ، يتفحصن الرجل الغريب الوافد على محلتهن ، فنكس سعيد رأسه وغض من طرفه لئلا يتهمنه بعلوحة العين ، الا انه راقبهن عن كثب . كن مثل هاتيك اللواتي خلفهن في منزله العتيق ، يحملن فضلات الطعام الباردة المعجونة بقشور الفواكه العفنة وباعقاب السكائر المفتتة ليضعنها جميعاً فى زوايا الطريق وكأنها مساكب الورد يزين بها شرفات منازلهن ، فاشمأز وتقزز ومضى في سبيله ساخطاً مغيظاً .

وعند الظهيرة عاد ادراجه الى منزله الجديد فاستقبلته فهيمة زوجته بوجه باسم فرح وشرعت تثرثر بما توفر لديها من ابناء المحلة قالت

أننا في خير حال ياسعيد لقد عثرنا على جيرة كريمة لم نكن نحلم بها في ماضيات ايامنا . زارتنا نورية جارتنا في الصباح بعد أنصرافك الى المدرسة وقعدنا سوية نتسامر في شؤون حياتنا ، لقد تبدت امرأة رائعة تقطر طيبـــة وادبا . زوجها اسكافي مسكين يشكو مختلف العلل ، قـد انجبت منه تسعة اطفال خمسة فقط تشبثوا بالحياة وجلهم بغير مدارس حالها مؤلم ياسعيد وهي تعاني ضروب المحن ، اواه لكم اثارت شفقتي وهزت جوانح نفسي»

اشاح سعيد بوجهه وقال في جفاء

- « احذري المشاجرات امنعي اطفالنـــا من الاختلاط باطفالهم »
فاحتجت فهيمة :

أي كلام تقول يا سعيد لقد تألفوا منذ اللحظة الاولى وشرعوا يلعبون سـوية وكأنهم اخوة » فهز سعيد رأسه متوعداً وقد اظلمت اساريره اكثر من ذي قبل

احذري المشاجرات كما قلت لك الف مرة وان لم تأخذي بنصيحتي فسترين ما الذي سيقع بعد ايام . لا تغرنك الالفة الكاذبة والمودة المصطنعة والحديث الخلاب المعسول ، كافة القطط لها ملمس ناعم ومخالب جارحة » .

واذا ما انصرم الاسبوع الاول نشبت اولى المعارك التي كان يتوقعهـا سعيد وكان من ضحاياها ابنه فوزي، وهو اصغر اولاده واحبهم الى قلبه . فذات مساء وفيما هو يتخذ سبيله الى منزله تناهت الى اذنيه وهو في اقصى الزقاق زعقات زوجته الصافرة الحادة وهي تهدر بالسباب والعويل . فاغذ

سعيد السير وقد انكسف لونه واضطربت انفاسه واستبد به القلق والهلع قال في ذات نفسه « لقد اعلنت الحرب » وعند وصيد بابه كانت تقف فهيمة متنفشة الشعر مهدلة الضفائر مفكوكة الازرار مخربشة مهتاجة على نحو جنوني . فاندفع اليها سعيد وهو مرتعد الاوصال

ما الذي حدث ؟ أتك تذهبين بصوابي » فولولت زوجته معولة

هذا ابن عبدالله الاسكافي اللعين ، ابن الجار الشقي المقيت تخاصم مع أبننا فوزي فاذا به يتسلح بهراوة ويسحق بها ساقه تفضل وانظر الى حال ابنك ، وفوق ذلك وثب علي وثبه فهد بنغالي وحش ، فمزق قميصي وخدش وجهي وكاد يفقأ عيني . سابلغ الخبر الى الشرطة واقيم الدعوى واطلب حبسه

ثم تعاظم صراخها واشتد عويلها ، فتجمع اناس غرباء ممقوتو الوجوه اتلعوا اعناقهم واصاخوا اسماعهم ، وتهامسوا ببعض الملاحظات الساخرة جعلت دماء المعلم سعيد تغلي من الغيظ ، وهمت فهيمة ان تختطف عباءتها من المشجب لتسرع الى الشرطة فارتمى عليها سعيد وامسكها من معصمها مسكة شديدة وردها الى مكانها وهو يؤنبها في قسوة وصرامة بالغتين .

الم اقل منذ البدء احذروا الاختلاط بالناس واعتصموا بالبيت تجنبوا الاشرار والسفهاء . كيف يمكن للمرء ان يمسك على كرامته بين اطفال مشردين تائهين في مثل هذه البيوت المكتظة الخانقة من غير منتزهات ولا رياض ولا اية فسحة من ارض سوى ازقة كالمصارين ضيقاً يحشر بها الناس .. هيا تقاتلوا وتناهشوا وتخانقوا . وفي البيوت اباء وامهات يتغازلون ويتعانقون فوق الاسرة لانجاب مخاليق مجرمة بشعة بغيضة ينتهون الى الخمارات والسجن والاعدام »

واذا ما نفذت عظاته وبلغ الغاية من محاضرته عرج على النصح المباشر وقد رقت حاشيته وتلطفت كلماته واستعاد بعض هدوئه

«يازوجتي فهيمة ياشريكة حياتي امنعي اطفالنا من الاختلاط باحد ، ليس في طوقي ان اتشاجر مع الناس ، انا رجل مسالم محب للعزلة والهدوء . ان شاء الاولاد ان يلعبوا فليكن ذلك في البيت » فلم يرق خطابه لفهيمة فارعدت هائجة

-((كيف يمكن هذا ، المنزل ضيق لا تتسع جنباته لا يما لعبة، وينبغي ان تفهم انهم ثلاثه ولا واحد ولا اثنين ، ثم هل لي ان اتقطع اجزاء اجزاء اوزع بعضها لاعمال الطبخ والكنس والغسيل والبعض الاخر لفض المنازعات وتسوية مشاكل الاطفال »

- « لا حل لنا غير هذا » اجاب سعيد بيأس وانقهار « والا فلا يستبعد ان يهاجموني ذات يوم ويبصقوا في وجهي ويقذفوني في الوحل انك ترين الى اي مدى بلغت وقاحتهم ، ما من شيء يصدهم ويكف شرهم ثم ليس في نيتنا ان نعيد ماسي الماضي وآلامه في بيتنا العتيق مع اطفال السيد بدر . هل نسيت ذلك كله » فغضبت فهيمة

- « هذا استجداء ومسكنة الشحاذين ، علام يبصقون في وجهك ايها الزوج الخانع المسكين . دع الامر بيدي لاريهم ماتلد الامهات » فاذعن سعيد لتهديدها واعتصم بالصمت .

مرت بضعة ايام بسلام لم تلحق بشخص سعيد اهانة ما ، كان باذلا جهده في تجنيب اطفاله الاحتكاك باحد . ولم يرفع عينيه في وجه اية امرأة وان كانت قمراً من الاقمار ، كما لم يبادر الى تحية اي مخلوق وان تماست منهما الاكتاف . وقد لاح له انه يصطنع افضل الاساليب ويتبع خير الطرق لنشر الطمأنينة والسلام في ارجاء بيته .

كانت ابنته وداد في الصف الرابع فهي تذهب الى مدرستها كل صباح حاملة كتبها واقلامها ومبراتها ، وفوق ملابسها قميصهـا المدرسي الاسود

الطويل ذو جيبين جانبيين وحزام . كانت تبالغ في تطبيق اوامر والدها، فهي تتجنب حشود الاطفال في المنعطفات ولا تتخذ صديقة من بنات محلتها ، وفي البيت تنكب على قراءتها وتخربش في دفاترها باجتهاد بالغ . وفي ايام العطل تعاون امها في غسل الرز ونشر الغسيل فوق السطح . كانت طيبة هادئة عادية الذكاء ترتعد من المشاجرات .

اما فاروق الابن الاخر فهو يبلغ من العمر ثمان سنوات قد بلغ الصف الثاني فهو في مدرسة سعيد افندي يخرج ويعود بصحبة أبيه . كان من دأبه ان يقتعد عتبة المنزل وينشد الاناشيد بجرس خافت مصحوباً بالصفير وكلما تقدم نحوه اولاد الجيران قطع نشيده وصفيره وأنسل الى المنزل غالقاً من ورائه الباب .

اما فوزي فهو الوحيد الذي لم يأخذ بنصيحةابيه . واذ لم تحن سنه الصغيرة للدخول الى المدرسة فقد وضع تحت رقابة امه طيلة النهار واحياناً يتغفلها ويتسرب الى الطريق غير مبال بما يبيته له الاطفال الاخرون من مشاكسات ومؤامرات . فهو ابداً عرضة لتلويث جلبابه بالطين واختطاف احدى فردتي حذائه .

وما هي الا ايام حتى تلاها حادث استشعر سعيدان الشؤم سيأتي في اعقابه. دخل المنزل عند المساء فلقي زوجته والجاره نورية تتسامران في المجاز بحديث شيق استغرق كل مشاعرهما وقد وضعتا اماميهما اكواب الشاي ترتشفانها في شره وتدخنان السكائر من علبة مطروحة بينهما . كان سعيد قد ابتاعها قبل ايام للمناسبات الطيبة . وكان اطفال الجارة الخمسة وجلهم شعثاء في غير احذية يمزحون مع اطفاله (الاعزاء) ولاحظ سعيد في كثير من الانزعاج ان الجارة احتوت ابنه فوزي بذراعها . تداعبه وتمسح على

شعره . تأمل سعيد هذا المشهد والعبسة تطل من محياه القاتم المكفهر ، فلم تنفرج شفتاه حتى بتحية .

كان حديثهما خافتاً مساراً فالتقط سعيد بعض كلماته . فاذا الاسطوانة الحوائية نفسها تشنف الاسماع، عن الخطبة والزواج ومعامل الاولاد . واستشعر سعيد ان الجارة قد لاذت بعض الشيء بعباءتها لتستر نحرها المتعظم المسود بالادخنه فسخر في وليجة نفسه

« انها لتكشف شيئا غير هذا على قارعة الطريق » واذا ما انصرفت الجارة واولادها شيعت فهيمة الموكب حتى الباب ثم اقبلت عليه هاشه باشه
ـ « كنت واهمة حقاً فلم اقدر المرأة حق قدرها شكت لي مصائبها والامها منذان تزوجت حتى يومها هذا . تقول انها ابنة رجل فقير كان يعمل دلاكاً في حمام وكان عبدالله زوجها زبوناً له يدلك له جسده كلما أتسخ فتوطدت الصداقة بين الرجلين . كانت هي الهدية الرخيصة التي قدمها الدلاك الى صديقه الاسكافي . شكت لي حياتها المره مع زوجها الفظ الكالح الوجة انه يسومها الذل والهوان ويجرعها العذاب الواناً »

فاعتدل سعيد في جلسته متخذاً هيئة الزوج الوقور الاريب قال في جفاء
ـ « وتلك المشاجرة المخجلة التي اضحكت علينا الناس وذاك الذي مزق قميصك . وشد شعرك ووثب عليك وثبة الفهد البنغالي . أتنسين كل ذلك . وكأنه لم يقع » فابتسمت فهيمة في ظرف
ـ « اواه ياسعيد لكم اعتذرت وأسفت لقد أنزلت بالشقي عقاباً صارماً . انهالت عليه بالقبقاب الثقيل حتى جعلته يعوى كالكلب ولولا ان اتدار كه من بين يديها لتخلعت فقرات ظهره .

وفي الصباح لاحت من سعيد التفاته عابرة ، فوقعت عيناه على جاره الاسكافي . كان دكانه قائماً في زاوية الزقاق في ركن خفي . تأمله سعيد فيما كان منحنياً على جلدة سميكة يقطعها بسكينه الحادة ، كان مقوس الظهر متطاول اللحية ، ذو محيا منفر . قد تجمعت حواليه اكوام الجلود العفنة الموحلة . يقوم في وسطها سطل صغير يستقر في قعره ماء قذر اسود وتتدلى من فوقه ومن جوانب دكانه خيوط العناكب وشتى النفايات التي لاغناء فيها . ازاح الاسكافي الجلدة عن ركبتيه وطفق يساوم طفلة على اصلاح قبقاب أمها . ويبدو انه أتفق معها على سعر معين فنزع جلدة القبقاب وصار ينقب في اكداس الجلود المتهرئة المعوجة عن جلدة صالحة . فلمح سعيد أفندي وأبتسم له مرحباً « اهلا سعيد افندي . أننا جيران» فنحى القبقاب جانباً ومد يدا ضخمة ملونة كثيفة الشعر وتبسم بشفتين متباعدتين تكشفتا عن نواجذ مسوسة صفراء وواصل الاسكافي ترحابه الذي لم يلاق اى صدى في نفس سعيد « انما ينبغي ان نوطد صداقتنا . ويسرني لو تفضلت الى المقهى هذا المساء . ان لنا مقهى خاص بنا نحن ابناء المحلة نختلف اليه في المساء للسمر والتسلية » واصطنع الاسكافي ضروب المماحكات لجر سعيد الى المقهى . وكان لحوحاً مهذاراً باكثر مما ينبغي . واذ ما ودعه سعيد تنفس الصعداء واسرع الخطى ومن ورائه فاروق يغذ السير اللحاق بأبيه

لاحظ سعيد خلال الاسبوعين التاليين ان زوجته لا تخرج لزيارة جارتها كما ان الجارة كفت عن زياراتها . ولاحظ الى جانب ذلك ان الاسكافي قد طفف من حرارة ترحابه وصار يلقاه هذه الايام بغير بشاشة ولا يصطنع اى قدر من المودة . ويرد على تحيته سعيد المتكلفة رداً جافاً مبتسراً ويحدجه

بنظرة باردة كليلة ويباشر عمله في انطباعه بلهاء لامبالية . الا ان ذلك لم يثر في صدر سعيد اي قلق، بل استحسنه وسر به وحسبه كتدبير افضل لوضع حد لاية مبالغة في توثيق الروابط وتلاحق الزيارات التي لا بد ان تنفجر ذات يوم بجلجلة وصخب عظمين . الا انه اخطأ الظن فلم يكن يدري ان (باتريات) النفوس تشحن بالضغائن والاحقاد وتجمع حولهـا المفرقعات والمتفجرات وتمـد الفتائل والحبـال وتنشر المصائد والشـباك ليـوم بطولي عظيم لا يعوزه الا عود ثقاب . وقـد جرت في بادىء الامر مناوشـة بين احد ابنـاء الاسكافي مع فوزي فلم تفطن لها فهيمة اذا كانت وحدها في المنزل . فأستنجد الطفل بأمه فاطرحت مشاغلها ومضت الى الباب ، وجدت غريمتها تتفرج على المعركة غير المتكافئة بين فوزي وابنها الذي يكبره بنحو خمسة اعوام،فتطاير رشاش الكلام الساخن المفرقع بين المرأتين المشحونتين غيظا وموجدة،نبحت نورية

ـ « يافاحشة ذات المساحيق والاصباغ يا لقاطة الحاجبين مدهونة الشعر »

وانفجرت فهيمة

« ياسافلة شريرة عاشقة الصبيان تلدين اولادك سفاحا وتزعمين للناس ان لك زوج اي زوج خرب عجوز ممقوت انه ليكاد ينطحن جوعـا ومرضا وأنه ليقزز النفس ويثير الغثيان » وردت نورية

ـ ((خير من زوجك المحدودب الاشيب. أنني شريفة لا اجمل نفسي بالعطور واطري وجهي بالكريم وأرفع ثديي بالمشدات واستعين بالكحل والتزجيج))

وقرقعت فهيمة في اهتياج عظيم

ـ «قذرة وسخة عيناك رمدتان ليتهما تعميان يا متوحشة سائقة الجواميس »

وكالمألوف في هـذه المناسبات ان يتجمع الفضوليون لاشباع فضولهم والمتسكعون لتصريف وقتهم ، فتناثرت التعليقات المستملحة والملاحظـات الماجنه . وسرى هنا وهناك تهامس وتدافع وتمازح ، فهمت المرأتان بالتخانق وقد تطاير الشرر من اعينهما وباتتا شرستين صروعتين اشبه بالديكة التي يراهن

عليها المقامرون . فتبرع بعض اولي الدالة في المحلة فامسكوا بها من المعاصم يردونها الى الوراء فتتلويان وتترعصان وتهددان باعظم الشرور . ثم تلاقتا في عرض الزقاق وقد افسح لهما المتفرجون حلبة حسنه تجولان فيها وتصولان فغرزت كلتاهما كامل اصابعها في شعر الاخرى وتدافعتا وتلاطمتا وبعد عشر دقائق حجز بينهما باذرع رجالية. فتباعدتا تلهثان وتشتمان وبأيد كل منهما حزمة طرية من الشعر . ودارت في الجانب الاخر معركة مماثلة بين الصبيان كانت اشد مراساً وأفتك درعاً . فتطايرت الحجارة وحفنات الرمل وضروب الخشب والحديد

كان يوم المعركة من الايام التى لا يحاضر فيها سعيد في قسم المكافحة ولذا فقد عاد الى منزله في نحو الساعة الرابعة وكان فاروق يخطو بصمت الى جانبه

شهد سعـــيد هذا القتـــال المحتدم البالغ الضراوة . فنفرت عروقه بالدم واتسعت عيناه استياء وغيظاً فتسمر في مكانه وقد استبد به الذعر على نحو جنوني مفاجيء . كانت وداد تستصرخ امها واباها في جرس مروع وتلطم ركبتيها وتنوح . وانخرط فاروق في الحال الى جانب امه .

فقد سعيد صوابه وتلجلج لسانه واصطكت ركبتاه فسقط أبنه فوزي في ميدان المعركة وتلطخ بالوحل وصار يستغيث فوثب عليه ابن الجار الشرير الذي يحفظ له سعيد امر الذكريات وقعد فوق ظهره وكانه يركب مطية ذليلة وشرع يكيل الرفسات واللطمات .

المت بسعيد نوبة حادة كتلك النوبات التي تعروه في الصف عندما يقرأ للصبيان دروسهم فيستثيره احدهم كأن يقذف قفاه بحصاة صغيرة او يموء تحت الرحلة او يخرج له لسانه هازئاًمستخفاً في تلك اللحظات القاتمة المكفهره يشعر سعيد بحراجـة الموقف وتأزم الحال . وانه قد غـدا على شفا الجنون الذي لا يمكن ان تصده عن سبيله اية قوة. ان الزمام يوشك ان يفلت والفوضى توشك ان تعم وتفدح فتستحيل المرئيات الى الواح سود تنعب في وجهه كالبوم .

صرخ سعيد صرخة مدوية كانت ايذانا بالهجوم فانقض كالنسر الجارح وانشب اظفاره في منكبي ابن الجار ورفعه بكلتا يديه فصار جسده يتارجح في الفضاء وقد ظغطت عليه قبضتا سعيد اللتان استحالتا الى كلابتين من حديد ممدتين لرفع الاثقال،فقذف بابن الجار الى الارض بكل مافي عضلاته من بأس فتعالت ولولة النساء واختلطت الصرخات متشابكة متقارعة حتى صكت سمعته فغشيت عينيه سحابة من العمى الضبابي تبين من خلال خيوطها الكثيفة وجها مشوها مروعا الى حد بعيد . كانت تنير ذلك الوجه عينان اشبه ماتكونان بمشعلين متوهجين ،فارتفعت من مكان ماذراع ثقيلة طويلة كثيفة الشعر كانها ذراع زحافة من الزحافات. كانت تلك الذراع تلوح بحذاء من احذية الجنود يهدف نحو راسه، فلم يقو سعيد على صده ومداركته فنال راسه عدة مرات فترنح ذات اليمين وذات الشمال ثم هوى على الارض في ضعف وتهافت بالغين . رعد الاسكافي والحذاء مايزال في قبضه

« امعلم هذا ام مجرم من المجرمين انه كاد يفتك بولدي ويورده مورد الموت من غير ريب . انتم ايها الناس شهود على فعلته .

فاجال الاسكافي في الجمع الحاشد عينين ضاريتين متوعدتين فهز الجمع الحاشد رووسهم مويدين مصادقين .

مضت نحو ساعة قبل ان يستفيق سعيد فقد اصابة الاسكافي بثلاث ضربات على ام راسه ، فى الموضع الذي صار يتكشف من الشعر بسبب الصلع . كان قد حمل الى بيته باذرع المتفرجين والقي فوق كنبة كبيرة يئن بصوت خافت وعيناه مغمضتان نصف اغماضه ، وهرعت فهيمة الى المركز فاستدعت شرطيا جاء يدرس ميدان المعركة ويسجل الاصابات ويبعث بالمصابين الى المستشفى

وتبعتها نورية من غير اى تريث فسجلت دعواها المتقابلة واستيق الاسكافي الى المركز واوقف بضع ساعات ريثما تكفله رجل من اصدقائه فاطلق سراحه ثم نقل سعيد الى المستشفى مضرح الراس وهو نا مخذولا فعصبوه بالشاش الابيض وضمدوا جروحه باليود وحملوا ابن الاسكافي الى مجبر الكسور اذ كانت ساة اليعنى قد كسرت بسبب ارتطامه الشديد بالارض فعاد يجر ساقا موجعة مبيضة بالكلس وملفوفة بالكتان من ركبته حتى الكاحل ووالداه يسندانه من الجانبين وتعتمان بالوعيد والتهديد وخرجت نساء المحلة واولادها لاستقبال المصابين وكانهما عائدين من الجبهة

تمدد سعيد على الكتبة يتاوه ويرسل الزفرات تباعا ويحتس الجروح في راسه بين اونة واخرى فيهدد ـ سارج بهم في السجن لاتقل العقـــوبة عن خمس سنوات انها مادة الشروع في القتل هذا مابينه للمحكمة نعم لتهم يفهمون جيدا ولا يتوانون عن وضع الحق فى نصابه اننا نحيا حتى ـ تحت ظل قانون عادل ورجال عادلين لايخدعون ولايزورون فان كانت ارواح الناس بمثل هذا الرخص لقرانا على البشرية السلام هذا مايجب ان اقوله واصر عليه وارفض اية مصالحة حتى وان دفعو لي طنا من الذهب فتواسية فهيمة

ـ كفى أهتم بنفسك استرح صحتك قبل اى شيء

فتغيظه كلماتها الملاطفة فينعب في وجهها

ـ هو ذنبك ايتها الحمقاء . . . . انظري ها هى النتيجة كيف ساشفى واخرج الى الطريق بهذه الراس المعممة بالشاش انهم من غير ريب سيشمتوا بي ويتلذذوا بجراحاتي . . . . اه لقد كنت مسرورا اذ اتزوج امراة متقفة في الصف الخامس تقرا وتكتب . والحقيقة كلكن سواء

فتفقد فهيمة اخر اذخرته من صبر على هجمات زوجها فتاخذ بتعنية

ـ « انت جننت كنت تفتك به من غير خلجة شك جعلتني ارتعد من الفزع غاص قلبي بين ضلوعي وانحللت. اواه لكم روعتني من حيث لاتدري

فيرفع سعيد في كرب ، غير راغب ان يواصل نقاشه مع فهيمة الذي صار يحتدم ويتلاحق لغير مصلحته فيتمتم في خفوت يجاور الهمس .

يا للجاهلة كانك لاتدرين أنك قد تزوجت معلم ابتدائية ، مصاب بانحلال الاعصاب ومعرض لنوبات الهستريا كالنساء ، انك لا تدرين ما الذي وقع لي ذات يوم ، وياالهول ما وقع . يا الله لقد ترات لي المحكمة والسجن والمشنقة والجلاد . ازلت قبضة يدي على رأس تلميذ مشاكس وقح . قلت لنفسي انتهيت يا معلم سعيد ، لم تقم لك قائمة بعد اليوم . تهاوى التلميذ مغشياً عليه وكانه ينازع في انفاســه الاخيرة . شحب لونه حتى غدا بلون حبات الكهرب وتجمدت اطرافه وانطمست عيناه ولولا ذلك المدير الشهم الكريم الذي انقذ الموقف بكياسته وحكمته، وهدأ اعصابي وشد عزيمتي ومنحني الجلد والمقاومة وتماسك الروح لتلاشيت وامحوت . عالج التلميذ بالمنبهات واقداح المـــاء حتى استعاد وعيه، وقد كتم الحادث ولم يبلغه لذوي الشأن ، لاولئك الطغاة المفتشين . غير ان ذلك المدير استغل الظرف ففرض على عبودية مشينة، فصار يكلفني بمهام اضافية ويحرمني بعض الحصص ويثقلني بالواجبات .

فدهشت فهيمة اذ انها لم تعلم بالحادث ولم يبلغه اليها فاروق الذي يداوم في مدرسة سعيد قال .

ـ لقد كتم الحادث كتمانا تاما حتى عن فاروق

تماثل سعيد نحو الشفاء فرجا زوجته ان تسقط دعواها في الشرطة وكذلك

فملت زوجة جاره . وكان لابد من اتخاذ بعض الاحتياطات الواقية لتجنب المعارك في المستقبل ، فقد اصدر سعيد اوامره الى اولاده وزوجته بمخاصرة المنزل مهما كانت الاحوال واصطنع لاجل ذلك الصرامة والعزم .

في بعض ايام الاسبوع يستغرق عمله فى المدرسة حتى المساء . فهو معلم في قسم مكافحة الامية التي تبدأ دروسها في الخامسة حتى السابعة . كان سعيد فرحاً بالنهوض بهذا الواجب ، ففضلا عن تقوية دخله بنحو ستة اوسبعة دنانير في الشهر فهو يعمل فى حقل خدمة عامة ذات نفع كبير . كانت دروسه فى الحساب والقراءة الاولية ، وكان تلاميذه مجموعة صغيرة من الرجال والصبيان يعملون في البناء والحدادة وسوق السيارات ، فهم يحضرون دروسهم بملابس العمل ولا يحدثون اية ضوضاء ويبالغون فى احترام معلمهم فيوقع ذلك في نفس سعيد اعظم الارتياح . ويأتى منزله في عتمة المساء فيجلس الى اولاده وزوجته بعض الوقت ، يلاعبهم ويمازحهم ويقرأ لهم دروسهم – ان كان فى مزاج حسن – حتى يعقد النوم اجفانهم فيشترك مع فهيمة في حمل المتخلفين على الارض وفي غير مواضعهم الى اسرتهم الخاصة ، ويخلو هو الى مطالعاته وشؤونه . ولكي يجتنب وجه الاسكافي البغيض فقد ابتدع لنفسه طرقا اخرى يسلكها في ذهابه وايابه تصل به الى الشارع العام ، وكانت هذه الطرق اطول من طريقه المعتاد بما يساوي الضعف .

واقبلت العطلة فتوفر الفراغ بين يدي سعيد ، الا ان منهاجه الصارم لم يتغير قيد انملة ، فهومثابر علية لا يسمح لاحد بخرقه وافساده . فقد حظر الوقوف بباب المنزل والتطلع من النوافذ ودعوة الباعة المتجولين فكل ذلك يولد الاحتكاك مع الناس ولا سيما الجيران .

كانت امسية الصيف قائظة خانقة تفوق الاحتمال فى ذلك المـــنزل الضيق السيء التهوية المطوق بجدران شاقولية اشبه بجدران البئر ، فتتنهد فهيمة وقد استشعرت كثافة بدنها الثقيل فى وقدة الصيف اللافح ،فهى تنضح عرقا من سائر جسدها والاطفال قانطون كئيبون ، قد شحبت وجوههم بسبب الاسر الطويل ، وســعيد شامخ متجبر بين هذه المخلوقات السجينة وكأنه قبطان حازم يصرف شؤون سفينة مهددة بالغرق فلا يعرف الحلم سبيلا الى نفسه . لقد وضع على جوانب السطح ستارة سميكة تفصله عن جاره ، ففى ساعات الليل حيث تهجع الكائنات جميعا وتسود السكينة المطبقة ، كان يتسمع سعال جاره وتنهداته . كان الاسكافى يتمخط ويأتي بضروب الشخرات والهمهمات بينما سعيد يتقلب في فراشه الكبير وهو نصف نائم ، وفهيمه الى جواره هادئة مطمانة قريرة العين ، فيتطلع الى الاسرة الصغيرة التي ينام عليهـا الاولاد . وياخذه احيانا الغضب لا لسبب سوى ان احدهم قد ازاح الدثار عن صدره وتعرض لتيار الهواء فينهض من فراشه ويصيح مخافتا

— وداد انتبهي الى نفسك . فاروق تدثرجيداً ... ما هذا الا تلاحظوا انفسكم تدثروا تدثروا قد يبرد الهواء بعد منتصف الليل وتمرضون .

فيصلح اوضاعهم ويحكم دثارهم فيشكرونه بالشخير والنخير . زوجته فهيمة تغط في النوم ملء جفونها هانئة اعظم الهناء . قد اضطجعت على ظهرها واسبلت ذراعيها على الجانبين في كسل وتراخ وعلى صدرها يعلو ثدياها الضخمان المشبهان نفاخات العيد . فيتقلب سعيد ذات اليمين وذات الشمال متمتما بشماتة كلمـــا سعل جاره .

— يا للشقي كاد يقتلني ذات يوم

ويهدهد اليه احياناً ان انساناً ما يعبث فى الصحون في المطبخ ، وان ثمة حركات لصوصية تصدر من بعض الغرف كأن احداً يفتح الابواب باحتراس ويعيد اغلاقها متصفحاً اوراق الدفاتر ليختلس النظر الى الدرجات السرية التي يضعها للتلاميذ ، فيستبد به القلق وتستثار هواجسه فيتسلل من فراشه الى الدار وينصت مليا ويحدق بعينيه الناعستين فى ارجاء المنزل المظلم يفكر سعيد.

لعل الاسكافي يلعب معه لعبة خسيسة لا هو يرسل سعاله ويبصق من فوق سريره الخشبي . قد تكون هره او فارة ولا شيء سواهما وينبعث صوت الجار مجاذبا زوجته اطراف الحديث . كل حديثه عن الاحذية والجلود حتى مع زوجته يمتدح مزايا الجلود الفرنســية ويفاضل بين احذية باتا واحذية دجلة

عند نهاية الشهر حل يوم الراتب ، منذ الصباح عقـد مع فهيمة مؤتمره الشهري الخطير لتقرير المشتريات الضرورية واستعراض حالة السوق والاسعار . تحدثا باسهاب واستفاضة عن الرز والسمن والحنطة واللحم ثم عرجا على حاجيات الاطفال مستعرضين الجلابيب والاحذية والقمصان ، وذكرا عددا كبيرا من الباعة ووازنا بين الاسعار وقدرا المتانة والجودة والجمال وحسن الشكل سعيد يشدد على المتانة بينما فهيمة تشدد على الجمال ففي مجال الاحذية يفضل سعيد الاحذية الغليظة المداس التي تصمد للامطار والوحل وان تكون من الجلد ذي اللون الغامق بينما فهيمة تفضل حذاء رقيقا ناعم الجلد ذي لون فاتح يناسب حرارة الصيف .وان لم تبلغ هذه المحاججات حد الجفوة والامتعاض الا انها تكدر صفو العائلة بضع ساعات . وتأتي فهيمة الى بسط حالها ، فهى الاخرى يعوزها قميص نوم وفستان صيفى واشياء للزينة والتجميل لا تتحدث

عنها فهيمة بالتفصيل غير ان سعيد يفهمها فيدس في يدها دينارا او دينارين قائلا في مرح .

ـ هذه ضريبة الجمال تجملي جيدا ايتها الزوجة .

احضر دفترا صغيرا سجل فيه كافة المقررات المتخذة لهذا الشهر وراجعها بدقة ووزان بين اقيامها واقيام الشهر الماضي مكونا في ذهنه فكرة شاملة عن مجرى حياته المعاشية، هي اشبه بالخطوط البيانية التي يرسمها علماء الاقتصاد.

واذ ماقبض راتبه فى ذلك النهار شخص الى الشورجة بهمة عارمة فاستأجر حمالا موثوق القوة بارز العضلات يحمل زنبيلا واسعا فخاض معه سعيد معمعان السوق الصاخب بالهرج . اشترى البصل والملح والرز والسمن والبطاطا والصابون والمعكروني وكلما ابتاع حاجة ما شطب اسمها من الدفتر لكيما ينسى شيء وقد يصدف أن يعثر على اشياء جديدة لم تدخل في حسابه ولم يدرجها فى الدفتر فيهتف « هذا شيء نافع قد تحتاجه فهيمة ولا تجده فتلتمسه من هذا وذاك » ولذا فقد عباه في الزنبيل علبا ورقية هى صرر صغيرة للاقحوان والخردل والبطنج والفلفل الاسود والقرنفل وبذر الكتان وحب البخور .صاح بالحمال

ـ هيا ايها الرجل اتبعني

فمشى هذا خلفه مقوس الظهر ينوء بحمله الثقيل وكاد يصل دكان جاره الاسكافي الا انه انتبه في اللحظة الاخيرة فارتاع ونكص على عقبيه هاتفا بالحمال

ـ خذ هذا الاتجاه

وقام باستدارات كبيرة وهو يتمتم ـ لا اريد ان ارى وجهه ـ فوصل منزله بين دهشة الحمال واستغرابه فسأله

ـ علام هذه المتاعب كان فى ميسورنا ان نسلك دروبا غير هذه فنصل فى

دقيقتين بدل مسيرة ساعة .. انظر كم قطعنا ؟

تمتم سعيدخجلا

ـ معك الحق ... انك لاتدري هناك مسألة . وقد اتعبتك وسادفع لك دفعا حسنا

اقبل نحو الباب وشرع مصراعيه على سعتهما فاندفع الحمال بحمله داخل المنزل وبرزت فهيمة من المطبخ ملوثة اليدين بالسمن ، وفوق انفها لطخة سخام كبيرة ،فنظرت الى الحمال فالفته رجلا يافعاً فاسرعت الى عباءتها لتلتف بها قبل ان تقع عليها انظاره فصاح بها سعيد منتهراً

ـ من الحمال ايضاً ايتها السخيفة كفى كفى تطوري، في اوربا النساء بالمايوهات فخجلت وتركت عباءتها وهي تعتذر بابتسامة مذنبة

ـ الا ترى الى الخروق فى فستاني

فلاحظ سعيد خرقاً كبيراً في ظهرها يتكشف جلدها من تحته فصاح بها مغضباً

ـ ما هذه الخرق البالية التي تضعينها على جسدك انك اشبه بمتسولة لا زوجة كريمة انجبت ثلاثة اطفال . دائما وسخة تشمئز منك النفس

فطاطات رأسها مضطربة خجلة وكان سعيد واثقا من صمتها واستكانتها اذ لولا مشترياته الضخمة لكانت قمينة ان تتطارح وتكابر . قالت فى اعتذار

ـ اتريد ان اتلف ثيابي الجديدة باعمال المطبخ

ـ المطبخ المطبخ ... اي شيء هو هذا المطبخ ، مدبغة جلود ، مصنع صابون ، دكان خراطه . المطبخ مكان نظيف فيه رونق وجمال نظافته اكثر ضروره من نظافة الصالون .

ثم التفت نحـو الحمال « هيا ايها الحمال . فرغ هـذه الاشياء » واتى بجرائـد قديمـة فرشها على الرفوف وصـف فوقها العلب والقوارير

والاكياس دون ان يطلب معونة زوجته او يسأل عنها . واذا ما تم له كل ذلك استشعر الارتياح العميق . فقد مون بيته بالطعام واللوازم وعنف زوجته كما يجدر بزوج حازم غيور ، واقرت فهيمة ملاحظاته واخذت بها .

وفي المساء خرجت الى السوق الكبير وعادت بعد ساعة تحمل علبا واكياسا ، حزر سعيد محتوياتها . كان فيها صبغة شفاه حمراء وكريم لتطرية الوجه واقلام تخطيط ومشد للثدي ، تبسم وقال في نفسه « هذه ضريبة الجمال دفعت بالتمام والكمال » ونهض هو الى تهيأة نفسه لمسرته الشهرية المقررة . فارتدى ملابسه النظيفة وعقد على عنقه ربطة زاهية وخرج سالكا المنعطفات الطويلة مجتنباً وجه الاسكافي، فوجد نفسه بعد حين في قلب شارع غازي ، فعرج على شارع فيصل ومضى ماشيا فوق الجسر شاعرا بلذة النسيم الندي المداعب وجنتيه . كان يوما من ايام الصيف والجسر مكتظ بجمهور المتريضين بينهم اسراب من السيدات السافرات في فساتين زاهرة وبنفسجية وخضراء يتمايلن في تيه ورشاقة، حاسرات الاذرع مشذبات الشعر ، تبتسم لهن الدنيا كما يبتسمن لها وقطع مسافة اخرى في شارع الصالحية وقعد بعض الوقت في احدى المقاهي يحدق الى الناس كانه مسافر غريب وفد على المدينة لاول مرة ، فهو تائق للتفرج والمعاينة كل شيء يستهويه ويفرحه وقد انجابت عن خاطره كافة المنغصات المكدرة التي عاناها فيما سلف من الايام . ولم تلبث الساعة ان بلغت الثامنة ، فانشا الراديو يذيع نشرة الاخبار . منذ حين لم يسمع اخبار الدنيا ولم يلم باحداث العالم المترامي الاطراف ، بسبب من مشاغله الكثيرة في البيت والمدرسة ، فبعض البلاد النائية قد غابت عن باله فالراديو يذكره بها فيدهش ويتساءل جاميكا وبرمودا وهايتي لقد قرأت اسمائها في كتب الجغرافية ولكن اين موقعها واين تكون فيجهد نفسه

لاستذكار مكانها على الخارطة فلم يوفق في نهاية الامر ، فيهز كتفيه في لامبالاة « العالم كبير لايسمني ان احفظ كل شيء »

وفي نحو الساعة التاسعة غادر المقهى باحثا عن مشرب يتناول فيه شيئاً من الخمر . كانت الانوار تسطع في الدكاكين والمخازن ، والسيارات الفخمة غادية رائحة وجمهور كبير من الناس يضج على الارصفة ، واذ بلغ الجسر ارتفعت نقرات الدفوف ورنين الاوتار من احد الملاهي القائمة على رصيف النهر . انصت سعيد لحظة الى اغنية تجود بها حنجرة نسوية لكم هو في شوق الى الاخذ بهذه التسلية الطارئة فمنذ حين طويل لم يجرب مثلها. كان ذلك في الايام الخوالي ، ايام كان يرتاد الملاهي ويحتل مقعدا اماميا ويعب كووس الخمر ويصفق للمغنية التي تبدع وتجيد . هذه الذكريات تبدت له مغالية في القدم كأنه قد عاش من بعدها قرنين كاملين ، فاتخذ قرارا في الحال ان يغشى الملهى ويحيي ايام عزوبته ، فالقى نفسه بعد دقائق وقد قعد في موضع بارز من حديقة الملهى وامامه كاس صغيرة مترعة بالخمر.. كان المسرح مغمورا بالانوار تتصدره جوقة العازفين وثمة مغنية عجفاء هزيلة تنوح باغنية مضجرة تتضخم كثيرا في ثنيات المذياع فتغدو ضربا من الرعود . اخرج علبة سكائره وطفق يدخن في سرور واطمئنان فعل الرجل الذي وفق منذ لحظة الى كسب صفقة رابحة .

تطلع حواليه الى اشجار الكالبتوس الشاهقة المستسلمة اوراقها في دعة الى وشوشات النسيم الرقيق المندى ، وقد لاذ في ظلالها الوارقة المشبكة بعض القصاد المترفين الذين يحظون بتقدير الملهى ورعايته وحيث يجتمع اليهم الفنانات اللواتي لم تحن ادوارهن بعد او فرغن منها . اختفت المغنية العجفاء فتصدت اخرى شحيمة غليظة العنق احتضنت المكروفون احتضانا

وراحت تشهق وتنتحب باغنية ممجوجة ، وتسللت الى المسرح قطة بيضاء وافرة الشعر ساحت اطرافه في تلصص لالتقاط الحشرات الهائعة .

استعرض سعيد حياته منذ ان غادر البصرة فى مطلع شبابه مرتحلا الى بغداد. كانت معه انذاك شهادة المتوسطة فالتحق بدار المعلمين الابتدائية ، درس فيها ثلاث سنوات كاملات دراسة مضنية مجهدة ، شغل نفسه خلالها بدراسة الادب العربي وحفظ دواوين الشعر والمعلقات ، واذا ما نال الشهادة بعثوا به الى سامراء ومنها الى مندلي والسعدية وعلي الغربي وخانقين والموصل واخر الامر فى بغداد ، ثم تذكر ايام غرامه بفهيمة ،كانت انذاك فتاة حيية لطيفة الوجه ذات جسم ممشوق ناعم ، فاحبها واحبته وصار يغازلها وصارت تغازله . كان بيت اهلها جوار مدرسته فهي تطل عليه من السطوح وتبتسم فيما هو يلقي دروسه على التلاميذ ، ومنذ زواجه بها اخذت تسمن تترهل وتفقد رشاقتها وعفة لسانها ، لكم برعت فى الشتائم وكانها احدى بنات الشارع .

ظهرت على المسرح راقصة رائعة جعلت سعيد يتململ فى مكانه مرسلا صيحة دهش خافتة ، كانت تلف كتفيها وبطنها بلفاعة رقيقة النسيج بصلية اللون لم تصطنع للتستر انما لمضاعفة الشوق واستزادة الحماس ،وقد كان لها ما ارادت ،فاذا ما اطرحت لفاعتها بعد ان استدارت مرتين او ثلاث تصاعدت صيحات مخمورة واهنة تحي اللحم الصقيل والجلد الخمري المشدود فى احكام رائع على جسدها اللين الطري الدائب فى تثنيات وتمعجات مذهلة، تجر من ورائها مئات الاعين المنشدهة المتوسعة عجبا ولهفة، غمغم سعيد مستعيدا فى ذهنه زوجته السخيفة العادمة للرشاقة ـ يا للمرأة العظيمة ـ

لمح فى الجوقة رجلا يضرب على العود ، عرفه سعيد فهتف «هذا فؤاد تلميذي العتيق» فحياه تلميذه بانحناءة رشيقة من الرأس، وفى فترة الاستراحة جلس الى

جواره مرحبا به قال سعيد فى وهن وهو شبه سكران

ـ منذ زمن طويل كففت عن ارتياد الملاهي اما الليلة فقد عاودني الحنين ... يا للراقصة العظيمة انها شيء مدهش تعيد الى الاذهان غنج جارية جركسية فى قصر عباسي ، راقصة جديرة بالسلاطين والحكام »سأله تلميذه

ـ كيف حال التعليم ؟ لكم كنت غبيا في القواعد ذلك الفاعل والمفعول والجازم والمجزوم وجملة الخبر وفعل الماضي المبنى على الفتح هل لازال المسكين فى جدار الفتح حتى يومنا هذا» فانفجر سعيد بضحكة مجلجلة توذن بانشراحه

ـ وهل يتغير هذا ؟ مبني على الفتح منذ ابو الأسود وسيبويه وسيبقى حتى تقوم الساعة.

وفى الساعة الثانية عشر انقلب الى منزله وهو يترنح ويردد بجرس خافت أخر اغنية التقطها من الملهى ويعاوده الابتسام والضحك كلما خطرت له نكات تلميذه الفكه الذرب اللسان . كان منتشيا ليس بسبب الخمر القليل الذى عبه الليلة بل لشعوره الزاخر بالسعادة واللامبالاة ، فمر بدكان الاسكافى دون ان ينكص او يتحرج انما مضى هازئا متحديا فى بسالة ، فتقدم الى اقفال الدكان وهزها بعنف عظيم ولطم الصفيح بشدة وصاح فى «غضب ايها الاسكافى الشرير لن اخافك قط واني لقادر على دك عظامك وانتزاع الروح من بين جنبيك » وخطر له ان يدس عود ثقاب في شقوق الدكان فيجعل الجلود تشتعل وتستحيل الى رماد ـ ولكم سيكون مشهدا فريدا عندما يبلغ الخبر مسامع الاسكافى فيرتعد ويهلع وهو يحملق الى النار المتاججة تلتهم جلوده العزيزة انه من غير ريب سيختلط عليه ويجن وقد تكون هذه الماساة نهاية حياته،غير ان سعيد مالبث ان عدل عن فكرته وبشيء من الندم « انني لن افعل ذلك لست شريرا اسعى فى اذى الناس ولا انا بالرجل الذى تفرحه مصائب الجيران ، لكم

اود ان احيا فى سلام مع الناس ، اواه ليس جرعة احـد اعلا الجهل والفقر والطغيان»

فى الصباح حدجته فهيمة بنظر عتاب وتأنيب،اذ لم تخف عنها سكرته ليلة امس، فقد ضايقها بلغوه ولطم وجهها ونفخ عليها انفاسه المخمورة الكريهة قالت:

ـ ما الذى يدعوك الى الافراط في السكر ارجو ان افهم ايضاحاتك؟

فنهرها سعيد

ـ اصمتي ليس هذا من شؤونك انني إفعل ما يروق لي .

ـ بل هو من شؤوني انك لست صبيا اعزب تلهو وتمرح كما يحلو لك ، انك قد تزوجت وانجبت اطفالا وتحملت مسؤولية العائلة ، ما تنفقه في المشارب والملاهي انفقه لاولادك ذلك خير الف مرة .

لقد ادرك سعيد من خلال تجاربه الطويلة انه ان لم يبادر الى اصطناع الشدة فلن تتردد فهيمة فى استغلال الفرصة الى ابعد مدى لبسط نفوذها عليه والتمرد على اوامره فهدر فى وجهها

ـ انا لست حيوانا في قفص اغشى الملاهي واسكر كلما وجدت في ذلك تسلية لي حتى الماكنة تنظف وتزيت انا لست اسوأ منها حظا، انفقت زهره عمري في سبيلك انت كي تمتصي متاعبي وتسمني على جهودي والامي ثم تعبسي في وجهي وتلوي شفتيك وتمطيني بالسخافات

فتخاذلت فهيمة بعض الشيء واجابت بجرس متضرع

ـ البيت يا سعيد البيت هو كل شيء في نظر الزوج الصالح

ـ البيت في خير لا ياخذك القلق فتفقدين البعض من سمنك انها مسرة تافهة لا تكلف كثيراً ولا تقع كل يوم انما فى بداية كل شهر ، شي لتجديد القوى ، لاستمادة النشاط ، لشحذ أسنان الماكنة ، لتطريق المسحاة الغائرة

فى الوحل ، هذا كل شيء ، ثم انني فى حاجة الى صحة جيدة واعصاب قوية وقلب فتي «والحقيقة انـــه كان يصف الرجل الذي يمكن له ان يدنو من تلك الراقصة التي فتنته في الليلة الفائتة .

تقضي شهران من اشهر المطلة الثلاثة وسعيد حريص على تطبيق اوامره المشددة لم يسمح لاولاده قط الاختلاط باحد فتضيق صدورهم ويضجرون غاية الضجر

وفى بعض الامسيات القائمة الراشحة ساما وكابة يصطحب سعيد العائلة الى الحدائق العامة ،فتخرج فهيمة بعباءتها الواسعة تلم بها بدنها السمين ، تتخطر الى جانب سعيد ومن حولها الاطفال الثلاثة يتقدمونها تارة ويتأخرون عنها تارة اخرى ، ولسعيد الحق المطلق فى تعيين الطرق التي ينبغي ان يسلكها الموكب فلم تشأ فهيمة معارضته اذ تجده مسروراً بدكتاتوريته الصغيرة فلا تفسدها عليه، وفي الساحات العامة يتمهل سعيد بضع دقائق شارحا للعائلة لمن تعود الابنية والعمارات الفخمة ويرصع شروحه باسماء بعض المالكين الذين يحظون بكراهية سعيد ومقته اذ يعملون على ارتفاع الايجارات واجبار الناس على السكنى فى الخرائب هادفين فى النهاية الى تضخيم ارباحهم ورفع ارصدتهم في البنوك . وعلى واجهات المخازن الكبرى يحدق سعيد الى الاجهزة المعقدة التي تدخل بيوت الاغنياء ، فثمة التلفزيون اوالثلاجة والمسجل والمدفاة والغاسلة ، يوضح للعائلة كيفية استعمال هذه الاشياء الغالية ويقرأ لهم اسعارها فتسري الرعدة فى اوصالهم

وفى الحديقة يتخير المصطبة المنعزلة البعيدة لجلوس العائلة ، يبتاع كمية من بذور اليقطين والركي المحمصين ويوزعه بينهم بعدالة متناهية ويدس الباقي فى يدي فهيمة ويستبقي لنفسه مقدارا قليلا لئلا تتاذى اسنانه . ويتكشف فى الحديقة ميله العارم الى دراسة النباتات فهو يناقش البستاني عن بعضها ليستوثق ان كانت مجلوبة من مكان ما ام هي نباتات وطنية ، وان كان لا يأمل ان يملك

حديقة ذات يوم او يغدو مزارعاً الا ان النزعة النباتية تراوده فى مثل هـذه المناسبات ولايقوى على قهرهاوهي ككل نزعاته المسالمة الاخرى تهدف جميعاًالى تزجية الفراغ

اما الاطفال فهم يلعبون حـــوله وتحت انظاره ولا يفتا يناديهم ويعنفهم ويدعوهم الى الأعتناء بنظافة ملابسهم

ولا يعمد الى خوض حديث طويل مع فهيمة فهو يلقي ملاحظات صغيرة عابرة ويتشاغل بالتطلع والتفحص فتلوذ هي بالصمت،تقرض بذورها فى هدوء بالغ وتقذف القشور من بين شفتيها ، حذرة ان تتساقط على ملابسها ، واذ ما تخطرت امامها سيدة انيقة سافرة تفحصت فهيمة فستانها وجوربها وحذاءها بدقة كبيرة محاولة ان تكون لنفسها رأيا في درجة لياقتها وشكلها فيرمقها سعيد بزاوية عينه ويبتسم

ـ هاه فهيمة كيف تجدينها ؟

ـ لا باس مقبولة

فيلمزها سعيد

ـ « اجدها رائعة بفستانها واناقتها وهى رشيقة جدا وقدها ممشوق »

فتفزع فهيمة

ـ « هى نحيفة كالعصا تباً لها »

ـ وانت سمينة وجسدك كبير

فتمتعض فهيمة

« انا لست سمينة بل انا خير منها »

ويعود الموكب ادراجه فى صدر الليل،فيقطعون الطريق فى تودة وبطء وقد استبد بسعيد القلق من جزاء انطلاق السيارت السريع فهو يتخذ سبيله عبر

الأرصفة ويحمل الجميع على طاعته . واذا كان البيت المريح هو البؤرة التى تنطلق منها كافة ازعاجاته وهمومه فقد عانى نفسه حسد للناس ، لاولئك الذين ينعمون ببيوت يشتهي ان يحوز مثلها. فعلى الطريق بيوت مرتبة نظيفة تنهض وسط حدائق مشجرة بالادواح تغرد فيها العصافير ، وبعض الصبية في عمر اولاده يلعبون ويمرحون بوجوه باسمة مشرقة ناضحة بالصحة ، وهو المعلم سعيد العامل خمسة عشر عاما فى خدمة الثقافة ، سائقاً عائلته باسرها الى زاوية عفنة مظلمة بأسة تعج بالأشرار ، ذلكم الاسكافى واولاده وزوجته عصبة من الجهلة الفاسدين

وتصرم ذلك الصيف الثقيل وئيدا وئيدا كعربة تخوض الاوحال، ناشرا في منزل سعيد قدرا فظيعا من الضجر والكرب واذما تنفس الخريف وراق نسيم الليل فوق السطوح وتخففت الاجساد من تعرقها ولهاثها افتتحت المدارس ابوابها وبرزت حشود الصبيان في الارقة يبتاعون الدفاتر والاقلام وكذلك الحال في منزل سعيد ، فقد نال اطفاله شهادات النجاح ومضوا الى الصفوف الاعلى فبلغت وداد الصف الخامس ، وهو الصف الذي يتلقى فيه التلاميذ دروس اللغة الانكليزية ، وبلغ فاروق الصف الثالث بنجاح باهر وفكر سعيد ان يلحق فورى الصغير في المدرسة في الصف الاول ، فجهزه بكتاب الخلدونية ودفترين وقلم ، وخاطت له فهيمة سروالا قصيرا من الصوف الناعم يصل الى ركبتيه ومحفظة من الكتان تعلق بالاكتاف يضع فيها اشياءه المدرسية، كما حولت اليه ببراعة نالت اعجاب سعيد أحدى ستر زوجها العتيقة الى مقاسات الطفل فلائمته تمام الملائمة

وشرعت زوجة الاسكافي تنشر شباكها وتلتمس الفرص لمبادلة التحيات مع فهيمة ، فتلتقيها في السوق وتستوقفها سائلة عن اسعار الطماطة

والباذنجان واللحم وتتمهل لدى البائعين كيما ترافقها في بعض الطريق دون ان تجرأ على دعوتها ، ولاحظت فهيمة في شيء من الغرابة ان الاسكافي صار يبش في وجهها ويتلطف بالسوال عن صحة الاولاد بيد انها لم تجرا على نقل هذه التطورات الى سعيد

ومضي الشهران الاولان من السنة الدراسية وابواب السماء موصدة دون المطر ولعل مياها غزيزة كانت تتكدس هناك لتفاجأ سعيد فتغمره وتتلف حذاءه

كانت العائلة قد انتقلت الى الغرف ، فقد لاحظ سعيد ذات ليلة ان نسيم الليل البارد شرع يخترق دثار الاطفال فيطورن سيقانهم ويحكون تغطية روؤسهم وفى ظهر اليوم التالي دعا فهيمة الى السطح لتعاونه فى نقل الاسرة والمصاطب الى الغرف . كان الزوجان يحتلان لنومهما الغرفة الكبرى المطلة على الطريق ويشاركهما فيها طفلهما الصغير فوزي ليكون تحت رعايتهما المباشرة اثناء الليل . فهو يضطجع على مصطبة مسورة فى ثلاث جهات قريبة من سرير ابويه، اما فاروق ووداد فقد افردت لهما غرفة صغيرة لها باب داخلي ينفتح على غرفة الزوجين ، وثمة غرفة ثالثة في الجانب المقابل معتمة مصدوعة الجدار لها نافذة صغيرة واحدة جعلها سعيد افندى مستودعاً للنفايات والزوائد .

كان سعيد يعود الى منزله ذات مساء واذبلغ الشارع العام قصف الرعد فى جلجلة وانساب هواء رطب بليل نفذ حتى عظام صدره وسمت فى ارجاء السماء غيوم سوداء جعلت ذلك المساء اشد كآبة وقتاما . ثم شـــرع المطر يتساقط فى غزارة ما لبث ان تجمع فى اثلام الطريق وحفرها جاعلا منها بحيرات طافحة هادرة خاضها سعيد خياضا بحذائه الموحل حتى طية السروال .

واذ ما كان لكل شيء على ظهر هذه الأرض طاقة لأحتمال اذى ما ، فقد كان

لحذاء سعيد افندي طاقة لأحتمال اذي المطر ، وقد استنفذت هذه الطاقة استنفاذاً كاملا عندما ارتخت المسامير وتقطعت بعض الخيوط فى احشاء الحذاء البالي العتيق وانفكت قطعة كبيرة من كافة ربطاتها وراحت تعلو وتنخفض كلسان الثور المذبوح، فلعن سعيد المطر والشتاء والحذاء ولعن نفسه لعدم معرفته بحشرجات الحذاء الاخيرة التي انتهت الى استشهاده في الوحل ،واذ ما كان في منزله لقي حذاءه فى اسوا حال،فدعا ابنه فوزي في الصباح قائلا «خذ حذائي هذا واصلحه عند الاسكافى حذار ان تقرب جارنا ، التمس اسكافيا اخر» فصدع فوزي بالامر. تناول حذاء ابيه وانطلق مسرعا لا يلوى على شيء ، فمر بالاسكافى الجار في سرعة بالغة فلمحه هذا ولمح الحذاء الممزق المفتوق فوجدها فرصة سانحة لمصالحة جاره المعلم فوثب من مكانه بخفة القط وامسك بفوزي .

ـ اين انت ذاهب بالحذاء ؟

فارتاع الطفل كما لو وقع بين يدى غول صاح فى ذعر

ـ دعني اصلح حذاء والدي اوصاني ان اجتنب دكانك دعني دعني

فاصطنع الاسكافي الرفق واللين منتزعا الحذاء من يدي الطفل الصغيرتين قائلا في عتاب

ـ الا تخجلون الا تستحون انتا جيران واصدقاء وبينناحقوق وواجبات علام الفجوة التي لا علة لها ولا سبب ، شجار بين اطفال ينتهي الى خصومة وعداوة بين الرجالا والنساء ، من اجل اي شيء ؟ ميراث حصة ثروة . تعال يابني ساصلح حذاء ابيك واحمله اليه بنفسي واصالحه واعتذر اليه نحن لا نريد باحد شرا انما كانت هفوة .

فصاح فاروق بجراة

« اوصاني ان اجتنب دكانك هات الحذاء سيضربني من جراء

ذلك »

وسرعان ما كان الحذاء مستلقيا على الطاولة ينال وخزات الابر الحادة ، فهم فوزي ان يختطفه من بين يديه فلم يمكنه الاسكافي ، فقد تحوط للامر بيديه الضخمتين القويتين . صاح اخيرا في ابتهاج غامر

ـ ها انني قد انتهيت هيا معي ساحمل اليه الحذاء بنفسي

فوجب قلب فوزي خشية ان تنشب معركة صباحية كان هو السبب في قدح اوارها ، فتضرع الى الاسكافي

« دع الحذاء بيدي سيغضب والدي ويضربني » فلم تجد تضرعات فوزي نفعا ، فتقدم الاسكافي الى الباب وطرقه طرقا رفيقا فظهر سعيد عند العتبة فاذا هو وجها لوجه امام خصمه سأله في خشونة عجزت ان تخفي ورائها دهشته البالغة

ـ ماذا تريد ؟

فالتمعت عينا الاسكافي الكابيلتان في طيبة ووداعة وقد طفت على محياه ابتسامة اعتذارية مذنبة قال

ـ تفضل حذائك ايها الاخ ، اصلحته لك وانني راغب في عفوك

تمهل سعيد بضع لحظات قبل ان يجيب . كانت كلمات الجار قد نفذت الى الوتر الحساس في نفسه الكريمة الخيرة فاذا الصدأ المداني البارد ينجاب وينقشع في شعور سار هو شعور الرجل الذي وفق الى المصالحة وهو ممسك بكرامته . ابتسم سعيد في ارتياح ومد يده النحيلة الى اليد الاخرى المتسخة المشعرة وهزها هزاً قوياً واذ ما علمت المرآتان بانباء المصالحة التي كانتا تتوقان لها اعظم التوق هرعتا نحو بابيهما فتحاضنتا في قوة وتبادلتا القبلات الرنانة كانت هي الدليل الوحيد للمودة الموقتة .

غرام كسيح

تقع عيون صبيان محلتنا وهم يلعبون ويمرحون على شاب كسيح هزيل يقتعد عتبة احد المنازل القريبة من مبنى مدرسة البنات منذ الفجر حتى ساعة متأخرة من المساء ، ومن فرط ما ألفه اولئك الصبيان واعتادوا وجوده ، حتى لم تعد تثيرهم غرابة مظهره ، حاسبين اياه كشيء ثابت طبيعي كائن في هذا المكان من هذا الطريق كما تكون اعمدة الكهرباء وصندوق البريد .

كنت اعرف هذا الكسيح واكن لحاله اشفاقاً كبيرا ليس بسبب من عاهته وفقره ومسكنته فحسب ، بل لانسياقه في وهم كبير يأبي الا أن يحسبه حقيقة واقعة ، وامنيته في الدنيا هي ان يشفى يوما من عاهته ويغدو سليما كسواه من الرجال فيخطب فتاة جميلة من هاتيك الفتيات اليانعات الملاطفات اللواتي يجتزن به في ساعات النهار متأبطات كتبهن ومناقشات رورسهن في حمية . لكن يلقين عليه نظراتهن الطريقة المداعبة فيجعلنه يتأوه في جرس عال ، وليس من يدري علام يتأوه اهو يتأوه حزناً وكمدا ويأسا ام تظرفا وتغزلا واستخفافا ، وكان يحز في نفسه ان يرى السيدات الموقرات يمررن به غير محجبات فيجلن فيه عيونهن في تحد وجرأة كاشفات عن اسنانهن وثيابهن دونما حرج وهذا مالا يصطنعنه مع سواه من الرجال ، يتساءل لم يتخففن معه من حشمتهن ولا يأخذن باسباب التقليد ، يأتيه الجواب في الحال انه دون الرجال لا يعدو ان يكون كسيحا مهاناً ملقى على عتبة البيت كما تلقى الاوساخ في المزبلة واذا ما مر به « هيفاء » الشابة الجميلة السافرة أبنة مدير مدرسة الاطفال يتهلل وجهه فرحا واشراقا ، تبتسم له الفتاة ابتسامة صادقة اليفة وتحيية بحرارة فتنتفخ رئتاه في

ملء صدره . وحال ان يقع هذا المشهد الفريد السار يتندر من حوله الصبيان ويضجون ضاحكين فلا يابه بهم احمد .

كان من عادتي ان احييه في الصباح واحييه كرة اخرى في المساء فيسر بي غاية السرور ، ويشكو لي في اذى بالغ غطرسة بعض الناس ، فهم لا يوفونه حقه من التحيات رغم انه يحتضنهم بنظراته من اقصى الشارع ويلاحقهم بعينين متوسعتين راجيتين ان تنفرج شفاههم بتحية فلا يفعلون فيكويه شعور موخز بالمهانة .

كان المنزل الذي يقتعد عتبته هو منزل اخيه محمود وهو كادح من الكادحين يتقاضى اجرا طفيفا لا يكاد يصل به بين فاتحة الشهر ونهايته ، ومن ورائه زوجة تريد وتلح واولاد ثلاثة يريدون ويلحون فلا غرابة ان ضاق ذرعا باخيه الكسيح الذي لا يشغل فى البيت غير وظيفة المستهلك الآكل وما عسى فى وسع الكسيح ان يصنع انه حالة ثقيلة وركام من غير نفع ، فهو ان مشى كدته خطواته كدا حتى لتجعل ساقيه ترتعشان وتتمايلان لولا ان يتدارك حائطا من الحيطان اوعصا غليظة يفرغ فوقها ثقله القليل . لايدري ماالذي ينبغي عليه ان يفعله ليرفع من قدر نفسه ويأخذ باسباب الكرامة . يتمنى الا تكون له معدة تستشعر الجوع ولا احشاء تضرخ للقوت ولكن حالما ينتصف النهار يشرع فى التململ فيرنو الى داخل المنزل منصتا لقرقعة الملاعق والصحون مستروحا اللحم الناشر بخاره الشهي فى قعر القدور . وعندئذ يفقد جلده جميعا فيجول اللعاب فى فمه حتى يكاد يملاه ، اما زوجة اخيه ففي طبعها لؤم مفضوح فتعمد فى مثل هذه الاحوال الى المماطلة والتاجيل كيما تتلذذ بمشهد الرجل الكاظم جوعه فى عسر بالغ ، واذ ما يتم لها اطعام اولادها تحمل اليه فضلات

تعافها النفس، تجمعها في صحن معدني صدىء مع قطع الخبز التي تركها الاولاد مغموسة بالمرق .

ذلك مايصيبه احمد المتحلب ريقه من الجوع ، غير انه حذر يخشى تلصص الاعين الى طعامه المرذول فهو يخفيه عن عيون الصبيان حتى لايضاعفوا سخريتهم ، فيتجشا ويتلمظ ويعالج فجوات اسنانه بعود ثقاب ويتصنع الارتياح والهمهمة كانه قد اتى اللحظة على فخذ كبش سمين

كنت اخرج احيانا الى الطريق بعد العشاء فأحيي احمد تحية ثالثة فيدفعني الاهتمام بحاله الى مبادلته بعض الحديث العابر الذي يفضله عن سواه من الاحاديث ، وهو حديث حبه بهيفاء اسأله ان كانت قد حيته في الصباح فيستغرب سؤالي غير انه في اعماقه يستطيب به نفسا يجيب في بداهة تامة اجل حيتني وهل في وسعها ان تفعل غير هذا ، انها ابنة فاضلة كريمة لاتميز الناس الى اثرياء وفقراء وسادة وعبيد انها تعمل بوحي قلبها الذهبي الطيب فأسأله اي قلب ابقيت لها انك سلبته منها منذ حين .

فيطالعني بعينين مدققتين فاحصتين يستجلي بهما حقيقتي، فاصطنع له الجد واثبت عليه حتى تمتلىء نفسه ثقة وتصديقا يقول بلهجة العارف الخبير انك لذكي لقد ادركت الحقيقة قبل سواك ولكنني ايها الصديق لست ادري كيف افيد من هذا الحب، ان الناس يعشقون ويتزوجون ويرزقون بالبنين غير انني في حيرة من امري فانا كسيح اشكو عاهة مؤسفة ويعوزني المورد والعمل لاكتساب الرزق فاطمأنه ما وسعني الاطمئنان

اشتغل يا احمد باي عمل توفق اليه، اصنع دمى اطفال ، لعبا من الورق الملون ، اكتسب حرفة كالزخرفة والنقش انها تدر ربحا طيبا، فلئن فقدت سلامة ساقيك ففي رأسك عقل سليم مفكر ، ثم انك دائن لاخيك بعشرين دينارا هي ارثك من

يسد جانبا من حاجاتك ويفيدك فى الزواج . أن هيفاء لاتشمخ ولا تتمنم

فيهز رأسه فى استيثاق ويقول في بساطة موشحة بلهجة الحكيم

«انه الغرام ياصاحبي، قد اقامها الى جواري وجعلها لا تسلك سبيلا غير سبيلي رغم ان السبل الى بيتها تتجاوز العشرة عدا وانني اهيم بها وارتضي ان اغدو عبدا لها» وينتابه انفعال فجائي ترتعش له قسمات وجهه وتشع عيناه ببريق حاد كأنه الوهج .

تلك سعادة الرجل وتلك امنيته واحلامه ، فلو ان الكساح اصاب قلبه لكان ذلك ادعى الى راحته ولكن الكساح اصاب قدميه وترك قلبه فتيا خفاقا يذوب بلوعة الغرام .

حدث ذات يوم ان مررت بمنزل احمد فلم القه بمكانه المعهود فانشدهت للامر فدنوت الى احد الصبيان وهمست في اذنه« اين هو احمد ؟ »فاجابني في شماتة «انه مريض معتكف فى فراشه»فاشفقت عليه ونظرت مليا الى العتبة الخالية،واقبلت في اليوم التالي فلقيته في مكانه شاحباً بادى الضعف كأنه قد احتمل علته دهراً طويلا سألته «احمد مابك لقد ذبت اشبه بشمعة مستها نار متأججة»أجاب في يأس وانخذال .

ـ لقد مرضت مرضا خطيراً ثقيل الوطأة

فسألته ان كان قد فحصه طبيب فاجاب«نعم انه الدكتور سعدي الذي يعالج مرضاه مساء كل يوم جمعة» فتأوه وقال في تضايق «ما الذي يجديني والدكتور منحني دقيقة واحدة من وقته ،كان عنده جمهور من المرضى الفقراء حبسوا انفسهم طيلة الاسبوع ليتكدسوا في عيادته المجانية يوم الجمعة ، لم يكن في وسعي غير ان انبس بكلمات اربع ـ دكتور الم حاد في القلب ! فالتقط قلمه وكتب شيئاً على ورقـة ثبت اسمي في اعلاها ، هممت ان استزيد فلم افلح، كان مريضاً آخر قد دس رأسه فى الباب فنكصت مرغما وانا امسك بالورقة .

اعتصمت بالصمت ورحت اتفرس فى ملامحه المتقبضة الكالحة وقد سطا عليها الخراب والمرض واليأس ، سألت « الا تجد نفسك احسن ؟» فتنهد فى ضعف وقال « انني ذاهب ، الموت خير لي » فانتفضت لكلماته الموجعة ورحت اسري عنه بغير جدوى ، قلت « وهيفاء يا احمد كيف نسيتها انك ستخلفها وراءك بائسة ملتاعة » ، فاستعبرت عيناه وصار راسه يتطأطأ الى صدره وبلغ مسمعي نشيجه المكتوم وسمعته يتمتم هيفاء « لقد خسرتها انها ليست من نصيبي ، ذهبت الى الابد ولم يعد لي اي شأن في حياتها .

ـ كيف علمت ذلك يا احمد ؟

فرفع راسه ورماني بنظرة قانطة وعيناه مخضلتان بالدمع قال

وجدتها صباح اليوم مع خطيبها

ـ خطيبها ! ماشكله ؟

ـ شكله الف مرة خير من شكلي ، شاب وسيم بالغ الهندام يطا الارض بقدمين ثابتتين رشيقتين ، قد تابطها وتأبطته ، لاسلام ولا تحية ولا نفاية اسمها احمد ، وجدتها تهمس فى اذنه كلاما ، فرمقني بنظرة مشفقة وإبتسم فى اليوم التالي لم القه ، فسألت عنه الصبيان فبرز لي احدهم وهو صغير ماكر يتزعم عصابة التندر على احمد ، قال وهو يبتسم ابتسامة ملوية ، « اتسال عن مجنون ليلى أنه هناك يذرف دموعه على سرير من السعف ولست ادري ان كانت له بقية من عمر ايطيل بها شعر راسه ويهيم فى البراري » كانت سخرية لاذعة امضتني مضا ، فكتمت انفعالي والمي وفى المساء عزمت ان اعوده في منزله فطرقت الباب فخرجت زوجة اخيه فقادتني الى سقيفة واطئة شحيحة النور مسودة بالدخان ، فى جانب منها قد استلقى شبح انساني ذائب ، مطمور بالعتمة تحت لحاف بالغ الرثاثة ، دنوت لفراشه وهمست « احمد تشجع جئت ازورك وسأفعل شيئا لاجلك » اماماهو ذلك الشيء

فلم اعرفه انا نفسي ، انما كنت اريد انماشه ومسرته ، فاختلج صـــدره ، وزفر فى كرب وارتعشت شفتاه ثم بذل جهدا ملحوظا ليتخذ وضعا قاعـدا فاعنته بيدي حتى تم له ذلك ، واذ ماعاد الى امتلاك نفسه شرع يتحدث :

ـ ياعزيزي ان هيفاء ليست من نصيبي وان بذلت المستحيل ، انك لن تدري ما الذي فعله غرامي بها . آه ياعزيزي لو قدر لك ان تغرم بامرأة ذات يوم ، لعرفت الكثير ، اما ان اصف بكلماتي القليلة المضطربة غرام متأجج نافذ في القلب والدم والفكر فأمر عسير ، كنت استعين بها في التخفيف عن مصابي وفي نسيان عاهتي،كنت اتذرع بحبها فأصد هجمات الساخرين ،ولكن ما الذي تبقى من كل ذلك الوهم الكبير »

وبدأ وكأنه يكاد يتقطع ويذوب فأسندته بيدي هاتفاً « احمد قليلا من الصبر » قال في يأس

ـ محال،الليلة تتزوج وتخرج من حياتي الى الابد،واستخرط يبكي بكاء الاطفال فلازمته نحو ساعة حتى ذهب بعض ما الم بـــه، فقمت اودعه وانصرفت ؛ ولكنني ما كدت ابلغ عتبة المنزل واضع قدمي على البقعة التي كان يحتلها احمد ايام غرامه ، حتى اقبلت سيارة مزدانة بالاوراد ومغطاة بالقطن والاشرطة، وانطلقت بعض النساء بتهاليل حادة صاخبة تثقب الاذن ولمحت هيفاء وقد توسطت المقعد بين سيدتين مزوقتين باسمتين ، مضى الموكب في سرعة مثيرا وراءه الغبار وهممت اواصل سيري لولا ان سمرني فى مكاني عويل ينبعث من المنزل . كانت امرأة واحدة تولول من الداخل فاندفع الصبيان نحو الباب وجعلوا من مجموعهم حلقة متراصة ينظرون بفزع وانشداه صاح احدهم «مات احمد» فوجم الجميع مطرقين صامتين .. كانت هيفاء تتزوج وكان احمد قد مات فما اعجب هذا الغرام .

في سبيل الافق

قبل نحو عام انتهت محكومية صديقنا حسن . كان قد امضي في السجن اربع سنين بسبب من ارتكابه جريمة قتل ، واظن ان الدخول في تفاصيل الحادث ليس مما يسر فقد كان اشبه بظاهرة في غاية الغرابة والشذوذ اذ لم يكن يامل اي منا ان يقدم رجل مثله اكتسب هذا القدر من الخلق الرفيع والطيبه المتناهية والعلم الغزير على قتل امراة من قريباته اتهمت بسوء السلوك، غير ان الحادث قد وقع وسجن حسن وهذا كل شيء .

في الليلة الاولى من انعتاقه اقمنا نحن اصدقاؤه المقربون حفلة مخمورة ابتهاجا بالمناسبة ، فتحوطنا حوله في حانة فاخرة نتفرسه بعيون مستطلعة . كان هو قد استند الى الجدار وتركنا نحن الاربعة نواجهه من كل اطرافه ، وعبثا حاولنا اكتشاف تغيير في سحنته . كان مثله قبل اربع سنوات. عينان خضراوان راعشتان تخبوان وتلتمعان باستمرار تحوط بهما اجفان مجعدة كثيرا كاجفان العجائز ومحيا قفقاسي أصفر تعلوه وجنتان من صميم بلاد الصين قال .

— امضيت في السجن اربع سنين ، وقد اجريت لي في مستشفى السجن عملية استئصال الكلية ، ولقيت مالايقل عن عشرة آلآف سجين ، وشهدت مرتين عملية اعدام . كان السجن يضطرب في هذه المناسبات وتتضاعف الحراسة وتلغى رخص السجانين وينسب احدنا لترتيل القران عند راس المحكوم طيلة الليل ولكم تمنيت ان يقع على الاختيار غير اني لم اوفق .كان سواي يتقدمني في كل مرة، وجربت ان اتعلم حرفة كالحلاقة وصناعة الاحذية فلم اوفق ايضا . ان تعلم حرفة في السجن امر صعب ، فالاسطوات يبخلون

بعلمهم خشية المنافسة وضياع الامتياز .

وهكذا جرى الحديث الماتع زهاء ثلاث ساعات حتى شارفنا على الحادية عشـــر ، ولا يكاد ضيفنا يفرغ من جواب حتى يسدد اليه احدنا سوألا اخر فسالته انا في اخر الامر

— وانت اى شي كان يضايقك في السجن ؟

تنهد الرجل واختلجت اجفانه وتعاظمت رعشات عينيه قال بجرس شاك

— جدران السجن لشد ماضايقتني واكربتني ، انى وجهت باصرتي صدمني جدار صامت اخرس كجدار الموت الذي يصف اليه المحكومون بالاعدام قبل اطلاق الرصاص عليهم . تصوروا اربع سنين اوعشر اوعشرين لاتقع عينا انسان على شيء يبعد خمسين ياردة . كل مرئياتي كانت في هـذه الحدود الضيقة . . . . اوله اواه الفضاء هو ضالة السجين التي يتحسر عليها .

ثم استرسل بنغمة امعن بالشكوى واحفل بالتفجع .

— ترى لو اخرجونا يوما في الاسبوع تجوب في البرارى ونرتاد ضفاف النهر ونستجلي الافق لـكم سيكون السجن مستساغا هينا ، ان النفس لتنتعش وتسر . . . . ولـكن الجدران الاربعة هي ناموس السجن الازلي بل هي الكرب العظيم الذى ينشق السجين من ثقله الى نصفين قلت

— اذن انت في لهفة للتنقيب عن ضالتك الثمينة ؟ هاانتذا قد نلت الحرية التي حرمت منها كل هذا الزمن الطويل وخرجت الى الدنيا الفسيحة ودانت لك البرارى والضفاف والافاق . فهتف في مرح

— هذا ما اريده ياصديقي سانطلق حيث لايصدمني جدار ولايعوقني حارس ولابوابة من حديد ، الفضاء كله لي انعم به ماشئت .. قلت

— هذا عظيم بيد انك ستضجر من غير ريب بلا رفيق ولا مونس

وكنت في قرارة نفسي اتوق لمصاحبة هذا الرجل القفقاسي المحياذي العينين الخضراوين . وقد طرف بعينيه غامزاً فيما هو ياقي التماسه

— هل تتفضل وتكون معي ؟ يوما هنا ويوما هناك ، لا ندع ارضا تعتب علينا ولا افقا ولا ضفة بل سياحة شاملة في طول المدينة وعرضها .

فوعدته ان اكون معه منذ الغد . وقد بررت بوعدى، اذ افتتحنا اولى جولاتنا في اليوم التالي .عقدنا العزم على القيام بجولة تبدا من محطة الكاظمية حتى كرادة مريم على ان نسلك رصيف النهر .

التقينا في نحو الساعة الواحدة بعد الظهر ، كان الجو رائقا والسماء متالقة تحت شمس ساطعة في غاية البهاء ، والنسيم هفافا يمسح على وجهينا في رفق . كان يوما ربيعيا حقا من الايام التي يكثر حولها الوصف الخلاب .

سرنا نحو ثلاثة اميال في اتجاه سكةالحديد فوق ارض فسيحة تبعثرت عليها ابراج معامل الطابوق وابنية صغيرة متباعدة واكواخ داخنة ، ثم انعطفنا صوب رصيف النهر مستعرضين الماء والشجر وقوارب الصيد وعمال السفن المنهمكين في تشييد هيكل سفينة حديدية، ولا نفتا نرنو الى الضفة البعيدة محاولين تعيين الاماكن هناك .

كان الطريق يتمهد تارة ويتوعر اخرى حتى بلغنا مبنى البلاط الجديد قلت لصاحبي

— هذا زورق عمومي ينقلنا الى الضفة الاخرى .

فاحتج قائلا .

— ليس في هذا الجانب مايمتع النظر ، لنتوغل الى مسافة اخرى حتى نبلغ موقع استدارة النهر

فاذعنت لمشيئته وتابعنا السير بتراخ ونصب ، فاتسع امامنا تيار النهر

وانبسطت صفحة الماء تتالق تحت حواجب الشمس التي اخذت تطفل منذ فترة يسيرة ، وقد امتد امامنا الافق حيث تتدلى السماء وتشرب اعناق التلال ويمتزج اللون الازرق باللون الرمادى هتف حسن .

— ها هنا الافق ما اروعه

وجعل يتامله في كثير من المرح والغبطة فقدرت ساعتئذ معنى الحرية ومعنى النضال لاجلهـــا واصر صاحبي على عبور النهر في اعرض موقع . لم يكن هناك زورق للاجرة انما كان زورق واحـد يتخذه صاحبه في صيد السمك ، وهو قديم مرقع دانية حوافيه نحو الماء . فرجونا الصياد ان ينقلنا الى الضفة الاخرى فاجاب طلبنا بعد تلـكوء ملمحاً لنا ان زورقه لايليق بنا وليس هو مضمونا فلم يبال صاحبي . كان ماخوذا بروعة الافق الذى سحره وخلب لبه . فركبنا الزورق فتمايل بنا هنيهة ثم استقام مدفوعا بقوة المجذافين واذ مابلغ بنا منتصف النهر برز لنا مركب بخارى من تلك المراكب الباذخة التي يتخذها الاغنياء للنزهة واقامة المآدب . برز مثل نمر مستوحش يرسل زئيرا وعربدة ، فخطر لي في الحال ان إخلع حذائي ، وهي عادة حميدة عند دنو خطر الغرق . اقبلت نحونا موجة قوية لطمت الزورق في جانبه فتارجح لحظة يسيرة ثم اقبلت موجة اخرى رفعته كالفنجان بين اصابع اليد ونفذت الى جوفه دفقة كبيرة من الماء فانشأ الصياد يزمجر ويرسل الشتائم ثم كانت موجة ثالثة قلبت الزورق والقتنا في النهر ، فطفت فوق الموج لحظة ثم غطست وارتفعت كرة اخرى وقد أيقنت من هلاكي .

كانت اصوات ثاقبة تتناهى الى اذني اشبه بزعيق حاد ترسله حناجر النسوة المفجوعات اللواتي يودعن ميتهن الوداع الاخير ، واحسست ان يدا فولاذية بالغة القوة تشدني من شعري وانني اطفو واتنفس هواء رطبا واذ

ماصحوت بعد حين وجدت نفسي ملقى على رصيف النهر وحوالي خلق كثير يتاملونني باشفاق، بادرت بالسوال عن حسن فاشار رجل لى النهر وقال

— انهم هناك مازالوا يفتشون في غير جدوى

وبعد يومين اخرجوا حسن من النهر ميتاً .

كانت عيناه مغمضتين بشـــدة ولاشك انهما تحتفظان بأخر روية للافق الوردى الذى صبغه المغيب بالقرمز .

متعهد التوزيع

توفيق محمود حلمي

صاحب مكتبة الامل

بغداد

تلفون ٦٤٨٠

مطبعة الأمة ـ بغداد ١٩٥٧